

## قراءة في فكرة الحضارة عند مالك بن نبي»

« Reading the idea of civilization when Malik bin Nabi »

« «La lecture de l'idée de la civilisation chez Malik bin Nabi » »

د سميحة يونس

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريرج

تاريخ النشر: 30-12-2017

تاريخ الارسال : 15-11-2017

ملخص:

شكلت فكرة الحضارة محور اهتمام الكثير من المؤرخين والمفكرين والمصلحين، ومالك بن نبي أحد هؤلاء المفكرين الذين شغلته هذه القضية، إذ احتلت عنده مكانة مركزية، ولذلك نجد جميع كتبه قد صدرت تحت عنوان ثابت هو: مشكلات الحضارة، وقد عمل على دراستها من زوايا مختلفة، فأحاط بجميع جوانبها التاريخية والنفسية والوظيفية باعتبارها ظاهرة كونية. وسنحاول في هذا المقال تقديم قراءة لفكرة الحضارة عند مالك بن نبي موضحين أهم المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها.

**Summary:**

The idea of civilization has been the focus of many historians, thinkers and reformers, and Malik ibn Nabi is one of those thinkers who they occupied the case, occupying a central position, and therefore all of its clerks have been issued under the title of Thabith: Problems of civilization, had worked to examine them from different angles, surrounded all Its historical, psychological and functional aspects as a cosmic phenomenon.

In this article, we will try to provide a reading of the idea of civilization to the owner of Ben Nabi explaining the most fundamental pillars on which it is based.

**Résume :**

L'idée de la civilisation a été l'objet de nombreux historiens, penseurs et réformateurs, Malik ibn Nabi est l'un des penseurs qui ont occupé cette question, occupant une position centrale, et donc tous ses livres ont été publiés sous le titre : les problèmes de la civilisation, étudié sous différents angles, entouré tous ses aspects historiques, psychologiques et fonctionnels comme un phénomène cosmique.

Dans cet article, nous allons essayer de fournir une lecture de l'idée de la civilisation au propriétaire de ben Nabi expliquant les piliers les plus fondamentaux sur lesquels il est basé.

**أولاً: الإشكالية:**

إن مفهوم المشروع الحضاري من المفاهيم التي شكلت حضوراً واسعاً في أدبيات الفكر المعاصر، ومن الإسهامات التي أخذت حيزاً كبيراً في الدراسة والبحث، ويعتبر مالك بن نبي من بين مفكري العالم العربي والإسلامي الذين اعتنوا بمشاكل مجتمعاتهم وحاولوا إيجاد الحلول لها، من خلال الدراسة والبحث، وبأسلوب علمي وتحليل دقيق، ومن بين الإسهامات التربوية التي أخذت حيزاً كبيراً من فكر مالك بن نبي ما أسماه بـ: "مشكلات الحضارة" التي اعتنى فيها بفكرة

جوهرية وهي إبراز مشكلة التخلف وإقترح الحلول لها، للتخلص منها وبناء الحضارة. وفي هذا الصدد يقول بن نبي: لا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها.

من هذا المنطلق، سنحاول في هذه الدراسة الإجابة على السؤال الرئيسي التالي:

✓ ما هي منطلقات وركائز فكرة الحضارة عند المفكر مالك بن نبي؟

### ثانيا: أهمية الدراسة وأهدافها:

إن الهدف الرئيسي لهذه الدراسة يتمثل في إبراز فكرة الحضارة عند مالك بن نبي، والعمل على إبراز الخطوط العريضة التي تضمنتها هاته الفكرة، ذلك أن أي أمة لا تستطيع تحقيق تقدمها وتنميتها إلا بالرجوع إلى إسهامات علمائها ومفكرها، فتستضيء بأفكارهم وتسترشد بأرائهم.

وبالنسبة لأهمية الدراسة فتتبع أساسا من أهمية فكرة الحضارة، والتي تعتبر الأساس لنهضة الأمم وتحقيق تقدمها.

### ثالثا: مراحل حياة مالك بن نبي:

#### المرحلة الأولى: في الجزائر 1905 - 1930م

مالك بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي ولد في: الخامس من ذي القعدة عام 1323 هجري الموافق للفتح من كانون الثاني (يناير) 1905 ميلادي في مدينة قسنطينة إحدى المدن الكبرى شرقي الجزائر (1).

ارتحلت عائلته إلى مدينة تبسة ثم لحق بها بعد أن مكث عند أقاربه في قسنطينة، وقد نشأ مالك بن نبي في عائلة محافظة، متمسكة بدينها وتقاليدها وفي ظروف فقيرة كسائر العائلات الجزائرية وقت الاستعمار الفرنسي، كفله عمه في قسنطينة وقتنا من الزمن، ثم اضطرت زوجة عمه أن تعيده إلى والديه في تبسة بعد وفاة عمه الأكبر الذي تبناه، وفي هذا الصدد يقول مالك: لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر، إذ مات عمي الأكبر في قسنطينة، وكان قد تبناني منذ أمد بعيد، مما جعل زوجته تعيدني إلى أهلي في تبسة على الرغم مما خلف ذلك من أسى في نفسها وفي نفسي، لقد فعلت ذلك لأن مواردها لم تعد تسمح لها بإعالتها (2).

وقد كان جده لأبيه فر إلى ليبيا إبان دخول الاحتلال الفرنسي إلى قسنطينة، وأخذ معه كل ما يملك من مال، بعد أن باع ما بحوزته من أملاك العائلة، وفي هذا يقول مالك بن نبي: كنت في السادسة أو السابعة من عمري، وكان وضع عائلتي قد ساء ماديا، فجدي لأبي باع كل ما

تبقى بحوزته من أملاك العائلة، وقد هجر الجزائر المستعمرة ليلجأ إلى طرابلس الغرب، فقد هاجر مع الموجة الأولى من الهجرة التي اجتاحت عام 1908 مدنا كثيرة كقسنطينة وتلمسان، تعبيراً عن رفض أهالي البلاد معايشة المستعمرين، والذي يعد البذرة الأولى لكثير من الأحداث السياسية التي جرت فيما بعد (3).

لقد عاش بن نبي حياة بسيطة كغيره من أبناء الجزائر العميقة، في وسط فقر مدقع وواقع اجتماعي هش، وفي كنف جدته لأمه بدأ التشكل التربوي الأول لمالك، حيث لعبت جدته دور المربي الأول الذي صاغ رؤيته الأولى نحو القيم الاخلاقية، كما كان لدخوله المدارس القرآنية (الكتاتيب) وضع في تكوينه شعوراً دينياً معيناً، بالإضافة إلى أن الوسط الجزائري العام كان محافظاً يحرص على أداء الشعائر. وفي مدينة تبسة أصبح مالك يعيش حياة جديدة تختلف عن تلك التي كان يعيشها في قسنطينة من حيث العناصر والمؤثرات، وقد كانت ظروف عائلته عسيرة، حيث كان أبوه عاطلاً عن العمل، وكانت أمه تعمل دون كلل لتسد كل ما يريده الطفل من نفقات المدرسة، إنه التشبث بالرصيد التاريخي الأصيل، لكن سرعان ما انفرج الوضع وتحسنت الأحوال المعيشية لأسرته بعد أن تقلد أبوه منصباً بسيطاً في الإدارة المحلية بتبسة، فأرسل إلى المدرسة الحكومية (الفرنسية)، وأرسل في الوقت نفسه إلى الكتاتيب لتعلم القرآن الكريم، وكان الفارق كبيراً في طرق التعليم بين المدرستين، مما جعله ينفر من الأساليب التقليدية في التعليم المسجدي ويتغيب كثيراً عن الدروس في المسجد، فتعرض بذلك للعقاب المزدوج من قبل المعلم والأب، وهذا ما زاده ابتعاداً عنها، واقتنع الوالد أخيراً بأن يستمر الطفل في المدرسة الحكومية، وينقطع عن المدرسة القديمة، لكن هذين الخطين: المدرسة الفرنسية والمدرسة القرآنية سوف يستمران معه في المدرسة الإعدادية وما بعدها (4).

لم يُقبل مالك في الكلية (Lycee) فقد كان من الصعوبة على طالب من أبناء المستعمرات أن يرسل بعد الابتدائية إلى هذه المرحلة، ولكنه حصل على منحة لمتابعة دروسه في التكميلية في قسنطينة، في مدرسة سيدي الجلي، إذ يُحضر الطالب خلال سنة أو سنتين للدخول إلى المدرسة أو إلى معهد المعلمين، وهو تعليم يساعد الطالب ليكون مساعداً قضائياً أو مساعداً طبيباً، وفي المدرسة يتعلم الطالب الفرنسية والعربية والدين، وقد كانت هذه رغبة والده في أن يتخرج مساعداً قضائياً (5).

لقد كان مالك بن نبي شغوفاً بالمطالعة والثقافة، فإلى جانب تعلمه في المدرسة الفرنسية، تلقى دروساً في العربية على يد الشيخ عبد المجيد، كما تأثر بالسيد مارتن Martin من المدرسة الثانوية، الذي غرس فيه ملكة التعبير وتذوقه، وحبب إليه المطالعة، وقد كان لهذه الازدواجية في الدراسة أن كونت في عقله خطين حدداً فيما بعد ميولاته الفكرية، وفي هذه المرحلة بدأت أفكاره

تتشكل وآفاقه تتسع عن طريق القراءات الكثيرة والمشاهدات الشخصية، أما مشاعره الإنمائية فكانت تتجه نحو رجل الإصلاح المعروف الشيخ عبد الحميد بن باديس، خاصة وقد زرع هذا الميل في نفسه منذ أن كان صغيراً وهو يراه يعبر أو يقف في الشارع محدثاً الناس. كما تميز سلوكه في هذه المرحلة بالميل إلى الصمت وإثارة الوحدة على الاجتماع. وتعد المرحلة التي قضاها مالك بن نبي في الثانوية بقسنطينة أبرز الفترات التي حددت اتجاهه الثقافي وحياته الفكرية ليس بتأثير أستاذه فقط، بل كان يختار لنفسه من القراءات المتنوعة والكثيرة<sup>(6)</sup>، وفي هذه الفترة نهل من مناهل الأدب العربي، وفي أحد مقاهي قسنطينة كان الصالون الأدبي يزوده بفرص الإطلاع على شعراء الجاهلية وشعراء العصر الأموي والعباسي، وكذلك شعراء المدرسة الحديثة كحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وغيرهم، ولكن أكثر ما أثر فيه كتابي: الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، وفي ذلك يقول: أنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة، كانت هذه الكتب تصح مزاجي، وحالت دون انجراف في الرومنطيقية، لقد أصبت هكذا عددا لا بأس به من المؤثرات الموجهة والمعدلة أو المحركة.

وقرأ في تلك الفترة أيضا كثيرا من المؤلفات الفرنسية، مثل: الإسلام بين الحوت والدب، لأوجين يونغ وفي ظلال الإسلام الدافئة لإيزابيل هارت، وكتاب: كيف تفكر لجون ديوي... إلخ. وقد كان يسقط كل شيء يقرؤه أو يسمعه على أحداث بلده، وعلى مستقبل الإسلام، إذ يقول: كانت في روعي قوة منبهة تقود كل ما يقع أمام بصري إلى اهتمام مركزي، وكان الإسلام هو ذلك الاهتمام.

والشيء الجديد الذي لاحظته بن نبي هو بروز الحركة الإصلاحية التي يقودها الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي وآخرون من أعضاء ومؤسسي جمعية العلماء الجزائريين، حيث بدأ الناس يتجمعون حول هؤلاء العلماء ويتكون المقاهي واللهو. وفي هذه الفترة أيضا تعرف مالك بن نبي على بعض تلامذة ابن باديس، حيث شعر بأنه ينقسم معهم اتجاهها فكريا واحدا<sup>(7)</sup>.

إن إعجاب مالك بن نبي بالشيخ ابن باديس لم يسمح له بالتلمذ على يديه، حيث يقول: لم أكن قد جالسته في حديث، ولكنه كان في نظري لا يمثل الإصلاح، ولم أعترف بخطئي حول هذه النقطة إلا بعد ربع قرن من الزمن، حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع، حينئذ تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام المسبقة، وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي، وأحكامي المسبقة أورثتها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة، زرعت لا شعوريا في نفسي نوعا من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة<sup>(8)</sup>، لقد استمر مالك بن نبي في الانتساب

للمدرسة الإكمالية في قسنطينة إلى أن تخرج منها كعون إداري عام 1925، وقرر بذلك ونظرا لظروفه المادية الصعبة الهجرة لأول مرة إلى فرنسا رفقة صديقه: قاواو، بعد أن باع أدوات النوم التي يملكها ولو بسعر منخفض، فقد كان تفكيره الأساسي أن يجعل من باريس معبرا لاكتشاف عالم آخر، وقد كان عمره آنذاك عشرون عاما. وعند وصوله إلى فرنسا وتحديدًا مرسيليا، وعند رؤيته حجم الفقر والبؤس الذي يعيشه الجزائريون هناك، اتجه إلى مدينة ليون بعد أن باع معطفه ليوفر أجرة القطار، وفي هذه المدينة تعرف على بعض الجزائريين الذين يحملون هموم الوطن وغربة الواقع.

لقد عمل هو وصديقه في مصنع للإسمنت، وفي باريس عمل مع ابن بلدته "تبسة" العامل في مصانع نيكولا Nicolas للجنة حيث كان العمل مضنيا وشاقا. وكانت نفسه الأبية ترفض ذلك الوضع وكان يردد في نفسه: متى أقبل على المطهر؟ ولم يتجاوز عمله في هذا المصنع أسبوعا واحدا، ليقفل راجعا بعد أن استغاث بعائلته التي بعثت إليه بدراهم العودة (9).

بعد عودته من فرنسا، كان صعبا على مالك البقاء دون عمل، فقرر العمل ولو دون أجر، وهكذا قبلته محكمة تبسة معاونا قضائيا متطوعا، وقد استطاع من خلال عمله هذا التعرف على الريف الجزائري من خلال جولات باش عدل المحكمة لتنفيذ بعض الأحكام القضائية، وبعد هذا العمل التطوعي، جاءه الجواب من النيابة العامة تعرض عليه العمل في ثلاث محاكم كمعاون قضائي، وقد اختار محكمة آفلو سنة 1927، ولدى وصوله إلى آفلو في منطقة وهران غربي الجزائر، وجد مالك الجزائر المفقودة، الجزائر البكر، بعيدا عن أيدي الاستعمار (10)، ومن الشرائط التي تكلم عنها مالك بن نبي ولاحظها: الكرم الذي ليس له حدود، فحين تمر رحلة من رحلات المحكمة وتتفادى مضربا من مضارب هؤلاء القوم، كان صاحب المضرب يغضب غضبا شديدا، ويصر على النزول عنده وتقديم الغداء، وفيها رأى رجل الفطرة الذي سلم من أوضاع المدينة وعقدها وبذاتها (11).

انتقل مالك بعد العمل في آفلو إلى محكمة شلغوم العيد، وكانت هذه البلدة مركزا كبيرا للمستعمرين، ولم ينسجم مالك مع أعضاء المحكمة، فاستقال وعاد إلى تبسة، وبعد جلسة مع والده ووالدته قرر الذهاب إلى فرنسا، ولكن هذه المرة لإكمال الدراسة وليس للعمل، وفي عام 1930 كان في طريقه إلى باريس.

**المرحلة الثانية: في باريس 1930-1956م:**

إن تشبع مالك بن نبي بالثقافة الإسلامية والغربية جعله يقف من الحضارة الفرنسية موقف المتأمل وليس المهزوم، حيث راح يكتشف الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في هذه الحضارة.

لقد كان همه الوحيد هو الانتساب لمعهد الدراسات الشرقية ليُكمل بعدها دراسة الحقوق كما يرغب والده، لكنه لم يتمكن من دخول المعهد ليس بسبب عدم نجاحه، بل لأن الدخول للمعهد لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي. بعد ذلك انتسب مالك إلى مدرسة اللاسلكي بدرجة مساعد مهندس، وقد أفادته هذه الدراسة العلمية- العملية وفتحت له باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف، ويتسم فيه الفرد بميزات الضبط والملاحظة<sup>(12)</sup>. ومن المعالم البارزة في هذه الفترة:

- ✓ تعرفه على الطلاب العرب في الحي اللاتيني.
- ✓ زواجه من سيدة فرنسية أسلمت وتسمت خديجة عام 1931 ومساعدتها المادية له.
- ✓ زيارته الجزائر عام 1932 وملاحظته التغير الذي بدأ يحدث في المجتمع الجزائري.
- ✓ حصوله على شهادة مهندس كهربائي عام 1935.

لقد بقي مالك في فرنسا حتى نهاية 1956، اشتغل فيها بالكتابة والعمل الفكري، وعمل صحفياً في جريدة لوموند، وأصدر في فرنسا باللغة الفرنسية كتبه: الظاهرة القرآنية، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي وفكرة إفريقيا- الآسيوية على ضوء مؤتمر باندونغ.

### المرحلة الثالثة: في القاهرة 1956-1963:

عام 1956 قرر مالك العودة إلى البلاد العربية ومغادرة فرنسا نهائياً، وكانت الوجهة مصر التي استقر بها، والجدير بالذكر أنه لم يحضر معه زوجته خديجة الفرنسية الأصل. وأثناء تواجده في مصر تعرف على العالم العربي وتعرف العالم العربي بدوره على مالك بن نبي، وصار له تلاميذ وأصدقاء، وأقام علاقات كثيرة بينه وبين المفكرين والطلبة القادمين إلى القاهرة لطلب العلم، والتي كان له فيها منتدى يرتاده الكثير من الطلبة من داخل مصر وخارجها، وفي عام 1959 قام بزيارة لسورية ولبنان، وشارك في عدد من المؤتمرات التي عقدت في السعودية والكويت وليبيا، وعُين من قبل الحكومة المصرية مستشاراً للمؤتمر الإسلامي الذي أُطلق عليه فيما بعد: مجمع البحوث الإسلامية. وأثناء تواجده في القاهرة عكف على ترجمة كتبه إلى العربية، وقد كان أتقن اللغة العربية أثناء فترة تواجده بمصر، وصار يكتب بها، وقد صدرت له الكتب التالية: مشكلة الثقافة، ميلاد مجتمع، في مهب المعركة، فكرة كومونولث إسلامي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة<sup>(13)</sup>.

وفي مصر تزوج من سيدة جزائرية وأنجب منها ثلاث بنات، ويذكر من عايشه في القاهرة أنه كان يحب البساطة في عيشه، ولم يكن يهتم بمأكله كثيرا، وكان حسن المعشر يحترم الصداقة ويقدم الضيافة بكل إتقان.

### المرحلة الرابعة: في الجزائر بعد الاستقلال 1963-1973:

تعتبر سنة 1963 سنة عودة بن نبي إلى وطنه بعد فترة غياب طويلة، بعد أن تحررت الجزائر من نير الاستعمار الفرنسي، والتي عُين بها مديرا عاما للتعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري، ولكن كان له تحفظات على طريقة الحكومة في المسارات الاجتماعية والاقتصادية، فاستقال من منصبه ليتفرغ للعمل الفكري.

كان فكر مالك بن نبي مدعوا لأن يلعب دورا متميزا بعد الاستقلال، ولكن بُعد الدولة عن الاهتمام بالفكر وإجراءات التقليد للشرق والغرب، واستغلال أعداء مالك لفكرته عن القابلية للاستعمار عندما جعلوها نوعا من التسويغ للاستعمار، كل هذا جعل تأثيره محدودا، واكتفى بأن أقام ندوة أسبوعية في منزله، يؤمها الشباب من أقطار المغرب العربي، وفي هذه الفترة زار سوريا ولبنان عام 1971 وأودع وصية في المحكمة الشرعية في طرابلس بلبنان حمل فيها الأستاذ عمر مسقاوي مسؤولية نشر كتبه. وفي عام 1972 أدى فريضة الحج، وفي طريق عودته مر بدمشق وحاضر في رابطة الحقوقيين وفي مسجد المرابط، وحملت المحاضرتان عنوان: دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وكأنما كانت هاتان المحاضرتان وصيته الأخيرة لجيل الشباب الذي يجب أن يحمل الأمانة ويؤديها للعالم.

وفي الجزائر وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط اشتد به المرض، فسافر إلى فرنسا لإجراء عملية جراحية، وبعد ثمانية أيام من رجوعه للجزائر توفي وكان ذلك يوم: الأربعاء 4 شوال 1393 هجري الموافق لـ: 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 ميلادي عن عمر ناهز 68 عاما. ومن مؤلفاته في الجزائر: أفاق جزائرية، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد، مذكرات شاهد للقرن... وغيرها من المؤلفات المخطوطة (14).

### رابعا: فكرة الحضارة عند مالك بن نبي:

إن فكرة الحضارة هي المحور الرئيس والإطار الأساس الذي تدور حوله وفي نطاقه أفكار مالك بن نبي، فالمشكلات كلها - في ضوء رؤيته- تتدرج تحت تلك المشكلة، فمشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، وقد وضع إنتاجه الفكري تحت عنوان مشكلات الحضارة إنطلاقا من تلك الرؤية، حيث يقول: كتبي كلها بعناوينها المختلفة أدرجت تحت عنوان عام هو:

مشكلات الحضارة، لأن المجتمع لا يعاني عندما تحل به أزمة سوى مشكلة واحدة هي مشكلة حضارته، فعندما يتحقق شرط الإنسجام تكون الحضارة مزدهرة، ويكون المجتمع بمثابة العقل السليم في الجسم السليم، وإن لم يتحقق هذا الإنسجام تحل بالمجتمع في هذا الطور من أطوار حضارته كل المحن التي يعانيها تحت أسماء مختلفة من استعمار إلى جهل إلى فقر... إلخ، بينما في الحقيقة كلها أعراض لمرض واحد هو فقدان الحضارة.

بناءً على ذلك فإن إيضاح رؤيته لتلك المشكلة هو المفتاح الرئيس لكل أفكاره، ولا يمكن فهم أفكار مالك بن نبي إلا إذا فهمنا فكرة الحضارة عنده. فما الحضارة في فكر مالك بن نبي؟ (15).

أخذ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي عدة أبعاد ومنظورات وزوايا بحثية، وذلك من خلال التركيز على مفهوم الحضارة باعتبارها قمة النشاط الإنساني، وأنها حصيلة تفاعل جملة من الأسباب والعوامل، وأن مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها (16).

### 1. مفهوم الحضارة:

أ. تعريف الحضارة من الناحية البيولوجية: مجموعة العلاقات بين المجال الحيوي "البيولوجي" حيث ينشأ ويقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها، فعندما نشترى منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها.

ب. الحضارة من الناحية التحليلية: لمجموع مكوناتها وكأنها معادلة رياضية فيقول:

$$\text{حضارة} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت}$$

وهي نتاج فكرة جوهرية تطبع على المجتمع في رحلة ما قبل التحضر الدفعة التي يدخل به التاريخ. وكل نتاج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية التالية:

$$\text{نتاج حضاري} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت}$$

- الإنسان: بكونه وحدة اجتماعية وليس إنفرادية.
- الوقت: مدة زمنية محددة بساعات معينة ينفقها الإنسان كوقت اجتماعي مقدر بساعات العمل.
- التراب: فهو ما يقدم غذاء الإنسان في صورة استهلاكية توفى بحاجات المجتمع تبعاً لعملية الإنتاج (17).

وتشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكفي بأن نكرس المنتجات وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها.

ج. الحضارة كتركيب بيولوجي: فمن ناحية الكيف تنتج الإستحالة من أي حضارة لا يمكن أن تباع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها ومشتلات هذه الأشياء، أي أنها لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها، هذا الحشد من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل، والتي توجد في الكتب أو في المؤسسات، ولكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح وبغير هدف (18). وعلى هذا الأساس يرى مالك بن نبي أن الحضارة: هي مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي ( البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها، فعندما نشترى منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها وروحها.

د. الحضارة كجوهر: يتلخص جوهر الحضارة في أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، بل إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة، التي تأخذ النهاية مهمتها التاريخية وتقوم بوظيفة الدم للكائن الحي، وتنقل أفكار الجمهور الشعبية والأفكار الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة.

هـ. الحضارة كتركيب رياضي: إن جمع منتجات حضارية هي الحضارة نفسها في صورة غير مركبة، فالحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته. ويكتب مالك بن نبي الصيغة الرياضية التالية:

$$\text{حضارة} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت} \quad (19).$$

و. الحضارة كشكل نوعي خاص: إن الحضارة ليست شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية، في أي مجتمع كان، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها، لا من حيث رغبته ولا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى لا من حيث أفكاره ولا من حيث وسائله.

ز. الحضارة ككل متكامل: إن الحضارة في أبسط معانيها ليست كومة من الأشياء المتخالفة في النوع، بل هي ذلك الكل أي المجموع المنسجم من الأشياء والأفكار بصلاتها ومنافعها وألقابها الخاصة وأماكنها المحددة، ومجموع كهذا لا يمكن تصوره على أنه مجرد تكديس، بل بناء وهندسة أي تحقيق فكرة ومثل أعلى.

ح. الحضارة كمجموعة من القيم وكوظيفة: إن الحضارة عند مالك بن نبي مجموعة من المبادئ المتداخلة التي تساعد الإنسان على التطور والنمو، إذ يقول في هذا الصدد: إن الحضارة في الواقع هي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره، وهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له، في هذا الطور أو ذاك من أطوار النمو<sup>(20)</sup>.

2. محورية الإنسان في التغيير الحضاري: يرى مالك بن نبي أن التجديد الحضاري لن يتحقق في أرض الواقع إلا بفعل ديناميكي يحركه، ففي بداية كل حضارة ثمة الفكرة الفاعلة القادرة على تغيير ما بالنفس ومن ثم تغيير ما بالعقل، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري نحو التجديد، إنها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية والمسؤولية الإنسانية الشاملة، إنها الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة الإنسانية والتقدم.

إن المفهوم الإصلاحى للحضارة وفلسفتها عند بن نبي يؤكد على ضرورة الاتجاه إلى بناء المسلم المعاصر على أسس روحية مستمدة من مفاهيم الفكر الإسلامى الصحيح، كما يؤكد على ضرورة الإبداع الذاتى فى عالم الفكر وعدم الاعتماد على الفكر الغربى كلىة، ذلك أن هذا الفكر ولىد بيئته الخاصة، وولىد روح إنسانىة لها سمته الخاصة بها، كما أن هذا الإبداع سىساهم فى التحرر بشكل أو بآخر من سيطرة الغرب علينا. كما دعا فى هذا المقام إلى ضرورة استثمار التراب الإسلامى بفعالىة، وأن أفضل استثمار لهذا التراب إنما يتم عن طريق العمل الدائم، ولعل أهم عامل لبناء هذه الحضارة المنشودة بجانب التراب هو الإنسان، ولن يتم ذلك إلا بالعمل على بث روح الإدراك الصحيح لأهمية الوقت ودوره فى بناء الحضارة<sup>(21)</sup>.

### 3. الدورة الحضارية عند مالك بن نبي:

يعتبر ابن خلدون أول من استنبط فكرة: الدورة فى نظريته عن الأجيال الثلاثة، إذ يختفى عمق الفكرة خلف مصطلحات ضيقة ضحلة، فقد رد نطاق الحضارة إلى حدود العصبية الأسرىة، وعلى الرغم من ضيق هذه النظرة التى قد تعكس لنا عناصر النفس الإسلامىة آنذاك، فإنها تدفعنا إلى تأكيد الجانب الإنتقالى فى الحضارة، أى أننا لا نرى فيها سوى تعاقب ظواهر عضوىة لكل منها بالضرورة فى مجالها المعين بداية ونهاية<sup>(22)</sup>.

ويعود الفضل فى بلورة وتطوير الاتجاه الحضارى بعد ابن خلدون إلى مالك بن نبي، والتى تمحورت حول تأسيس هذا الوعى الحضارى بناء على ثقافة التكاملية، وقد نالت فكرة الدورة الحضارىة عند مالك بن نبي رواجاً كبيراً بين الباحثين فى الفكر الاجتماعى والتربوى لما لها من

وقع على التوجهات الثقافية والفكرية، وما حظيت بها لانطلاقها الإنسانية والعقدية، وقد طبق مالك نظريته هذه على التغييرات الاجتماعية التي جرت في مجتمعي الحضارتين المسيحية والإسلامية، كما يلي:

- **المرحلة الروحية:** وحسب مالك فإن هذه المرحلة بدأت منذ بعث النبي محمد صل الله عليه وسلم بالرسالة واستمرت حتى معركة صفين، التي أصابت الأمة بالانقسام الذي سببه صراع حمية الجاهلية مع الروح القرآنية (23).
- **المرحلة العقلية:** وهي مرحلة عمل فيها على استعمال الطاقات العقلية مع استبعاد الجانب الروحي، أي المبدأ الأخلاقي، وتصبح فيه التربية ذات طابع اجتهادي، وبالتالي تتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية وتؤدي إلى انهيار المجتمع. وتمثل مرحلة العقل بالنسبة لمالك بن نبي مرحلة تطل بظيء جزئي للمجتمع، ونقص الفعالية ناجم عن انكماش في تأثير مبدأ الروح في حياة المجتمع بصفة عامة ونمو في العقل، مما يؤدي وبصفة آلية إلى توقفه عن الصعود الحضاري.
- **مرحلة الغريزة:** أهم ما يميز هذه المرحلة هو الانهيار والانحطاط، حيث يخرج المجتمع فيها من طوره الحضاري، فبخفوت صوت الروح تتطلق الغرائز، لأن الفكرة الدينية فقدت رصيدها داخل الفرد، وفقد المجتمع سلطته على أفرادها، وبالتالي فإن العقل سيغيب ويفقد وظيفته الاجتماعية، ويدخل المجتمع المرحلة المظلمة في التاريخ وتنتهي دورة الحضارة (24).

**4. عناصر الحضارة:** يؤكد مالك بن نبي في أكثر من موضع أن مجموع منتجات حضارة ما يساوي مجموع الأشخاص بزيادة مجموع ضروب التراب وزيادة مجموع الأزمنة.

**1.4. الإنسان:** وتدور الفكرة الأساسية حول تحويل الفرد إلى إنسان خضع للتكييف الأولي حتى يصبح شخص، إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا individuel إلى أن يصبح شخصا personne وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع (25).

**2.4. التراب:** وليس المقصود بالتراب هنا البحث في خصائصه وإنما البحث في قيمته الاجتماعية بكونه عاملا من عوامل النهضة الحضارية، فكما ارتفعت قيمة الأمة وتقدمت حضارتها كلما ارتفعت قيمة التراب والعكس صحيح. وهذا التراب من ناحية يتصل بالإنسان في صورة الملكية للأرض فيكون شيئا حيويا أما من ناحية أخرى فإنه يتصل بالإنسان من الناحية العلمية والسيطرة الفنية.

**3.4. الزمن:** وليس المقصود به الزمن المطلق وإنما قيمته عند الإنسان، ويرجع ازدهار الحضارة الإسلامية السابقة بسرعة مذهلة إلى تقديس المسلمين للوقت آنذاك، فهو يمر على السواء في كل أرض على كل شعب وفرد ولكنه في مجال ما يصير ثروة وفي مجال آخر يتحول عدما. فيجب اغتنام الفرص من الحياة من أجل العطاء فإدراك قيمة الفرد فدرا وجماعة هو إدراك لقيمه التي لا تعوض، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت (26).

**5. محاور الحضارة:** إن أهم ما يميز منهج مالك بن نبي في معالجته للقضايا التي تعرض لها أنه كان ينظر إليها من منظور غير تقليدي، فقد كان مهندسا تتعلق ثقافته أكثر ما بالنسب والعلوم والرياضيات، غير أنه كان مسلما غيور على دينه وعقيدته، ويحدد مالك بن نبي مقومات المشروع الحضاري في ثلاث محاور أساسية:

- تكوين عالم الأشخاص
- تكوين عالم الأفكار
- تكوين عالم الأشياء

لقد وضع مالك بن نبي لهذا المشروع الحضاري الضخم هذه المحاور الثلاث يكتمل بتفاعلها البناء، ويتجسد حلم الأمة في استعادة الدور العالمي لهذه الحضارة. ولكي نصنع التاريخ ونمارس حقنا المشروع في التحضر لا بد أن نقف عند كل محور من هذه المحاور ونعطينه ما يقتضيه من متطلبات وظروف، وفق مناهج علمية مدروسة، وصناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:

- ✓ تأثير عالم الأشخاص.
- ✓ تأثير عالم الأفكار.
- ✓ تأثير عالم الأشياء.

لكن هذه العوالم الثلاث لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص، وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، هي التي تنسجم في صورة حضارة يُعد ضرورة أيضا (27).

إن أحسن تعريف للحضارة قدمه مالك بن نبي، تشبيهه لها بالشمس التي تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر.

وتتبين الأصالة الفكرية عند مالك بن نبي بتأكيده أن الإسلام هو القادر على إعادة المسلمين إلى عالم الحضارة المبدعة، وأن تمسك الإنسان المسلم بالإسلام جعله صانع أعظم حضارة عرفها التاريخ، وأن الاستعانة بالغرب وثقافته إنما هي محاولة لإذابة ذاتيتنا الثقافية، وأن الإسلام وحده القادر على حماية الأمة من الذوبان.

يلح مالك بن نبي على ضرورة التمييز بين الثقافة والعلم، ويحذر من الخلط الشائع في تصورهما والتعبير عنهما، فدعا إلى ضرورة الربط الوثيق بينهما، كما دعا إلى ضرورة تحديد أوضاعنا في صدر بناء نهضتنا بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا من رواسب الماضي.

والثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل (28).

### خاتمة:

يعتبر مفهوم الحضارة في النسق الفكري لمالك بن نبي مفهوماً جوهرياً، ومحوراً مهماً تدور حوله معظم أفكاره، فبالإضافة إلى الجانب المادي للحضارة يوجد الجاني القيمي والسلوكي الذي يجب أن يكون في الحضارة، وقد كان تركيزه على جانب الأخلاق لأنه الأساس الأول، فبفقدانه تسقط الحضارة.

ومن الأفكار التي يمكن استخلاصها من فكرة الحضارة عند مالك بن نبي، ما يلي:

- الارتباط الوثيق بين مفهومي الحضارة والتنمية، فالنمو حضارة والتخلف انحطاط. والحضارة في جوهرها هي: مجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم كل فرد، من الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له، أي أن التنمية عند مالك بن نبي تأخذ الثقافة كمحتوى وكوعاء لها لكي تضمن المشاركة الاجتماعية الكلية لها.
- يؤكد مالك بن نبي على مركزية نظرية الدورة الحضارية في مشروعه بوصفها الإطار الكلي المفسر لظاهرة البناء والسقوط الحضاري.
- توظيف القيم والأخلاق في بناء الحضارة واعتبارها عاملاً جوهرياً يسهم في بقائها ونمائها، فوراء كل تقدم ومدنية قيم أخلاقية وروحية، فالأخلاق عند مالك بن نبي هي سلوك يتفاعل فيه الضمير والفكر والعاطفة والإرادة والتنفيذ والعادة.
- ضرورة الاتحاد والتكتل من أجل بناء الحضارة بين الدول الإسلامية أو بين الدول العربية، فقد طرح بن نبي فكرة: "محور كنجة-جاكرتا"، وفكرة كومونولث إسلامي.

- اتسم المشروع الحضاري عند مالك بن نبي بخطوات منهجية دقيقة وصارمة، واضحة الأبعاد والخطوات، في إطار منظومة تغييرية، شكلت في محصلتها النهائية وحدة عضوية متكاملة، حيث انطلق مشروعه من استقراء الواقع التاريخي، بغرض كشف العلل التي أثرت في الأداء الحضاري للأمة، ثم اتجه إلى تشخيص الواقع الراهن، بهدف الإحاطة الكلية بالأسباب التي تعطل الأمة الإسلامية عن الاستئناف الحضاري.
- رصد بن نبي في مشروعه الحضاري قراءة متميزة للواقع الإسلامي تشخيصا وتصحيحا، سواء من حيث المنهج أو من حيث المضمون، نقلة فكرية جديدة للأفكار النهضوية الإسلامية نحو التعمق والتجذر والتجدد والفاعلية.
- أوضح بن نبي أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع يفتقد للأفكار والمفاهيم لتحقيق التجديد في بنية المجتمع، فالبناء الحضاري يتطلب أفكارا لا أشياء، والحديث عن الأفكار يجرنا حتما إلى الثقافة، لأن المشكلة لا تنحصر في فهم الثقافة، بل في تحقيقها عمليا، وأوضح أن الحضارة هي في حقيقتها ذات مضمون تربوي ذو طابع تغييرية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (29)

### الهوامش:

- (1) - محمد العبدية - مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح - ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 2006، ص: 22.
- (2) - العابد ميهوب - الفكر التربوي عند مالك بن نبي - أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع، تخصص: تربية (غير منشورة)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013/201، ص: 44.
- (3) - نفس المرجع، ص: 45.
- (4) - نفس المرجع، ص: 45-46.
- (5) - محمد العبدية - مرجع سابق، ص: 24-25.
- (6) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص: 47.
- (7) - محمد العبدية، مرجع سابق، ص: 25-27.
- (8) - نفس المرجع، ص: 28.
- (9) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص: 50-51.
- (10) - محمد العبدية، مرجع سابق، ص: 29-30.

- (11) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص:53.
- (12) - محمد العبد، مرجع سابق، ص-ص: 32-33.
- (13) - نفس المرجع، ص-ص: 34-42.
- (14) - نفس المرجع، ص-ص: 42-45.
- (15) - عبد الله بن حمد العويسي - مالك بن نبي: حياته وفكره - ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2012، ص-ص: 377-378.
- (16) - عبد الوهاب بوخلخال - قراءة في فكر مالك بن نبي - سلسلة كتاب الأمة، العدد:152، السنة الثانية والثلاثون، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة، قطر، ذو القعدة 1433هـ / أكتوبر 2012، ص:45.
- (17) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص-ص: 156-158.
- (18) - مالك بن نبي - شروط النهضة - ط9، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2009، ص: 47.
- (19) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص-ص: 158-159.
- (20) - نفس المرجع، ص:159.
- (21) - نفس المرجع، ص-ص: 160-161.
- (22) - مالك بن نبي - وجهة العالم الإسلامي - ترجمة: عبد الصبور شاهين بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2006، ص:28.
- (23) - نفس المرجع، ص-ص: 28-29.
- (24) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص-ص: 164-167.
- (25) - مالك بن نبي - ميلاد مجتمع - ترجمة عبد الصبور شاهين بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط8، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010، ص:31.
- (26) - مالك بن نبي - شروط النهضة - مرجع سابق، ص-ص: 145-146.
- (27) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص-ص: 174-184.
- (28) - عبد الملك عبد الرحمان عبد العزيز العتيق - مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي - بحث تمهيدي لمرحلة الماجستير في الدراسات الإسلامية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت لبنان، 2004، ص-ص: 20-25.
- (29) - العابد ميهوب، مرجع سابق، ص-ص: 424-428.

### قائمة المراجع:

- 1- العابد ميهوب- **الفكر التربوي عند مالك بن نبي**- أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع، تخصص: تربية (غير منشورة)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013/2014.
- 2- عبد الله بن حمد العويسي - **مالك بن نبي: حياته وفكره** - ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2012.
- 3- عبد الملك عبد الرحمان عبد العزيز العتيق- **مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي**- بحث تمهيدي لمرحلة الماجستير في الدراسات الإسلامية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت، لبنان، 2004.
- 4- عبد الوهاب بوخلخال - **قراءة في فكر مالك بن نبي**- سلسلة كتاب الأمة، العدد:152، السنة الثانية والثلاثون، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة، قطر، ذو القعدة 1433هـ/ أكتوبر 2012.
- 5- مالك بن نبي - **وجهة العالم الإسلامي**- ترجمة: عبد الصبور شاهين بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2006.
- 6 - مالك بن نبي - **شروط النهضة** - ط9، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2009.
- 7- مالك بن نبي - **ميلاد مجتمع**- ترجمة عبد الصبور شاهين بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط8، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010.
- 8- محمد العبد - **مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي** - ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 2006.